

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## ٥٤ - سُورَةُ الْقَمَرِ

وتسمى سورة (أُقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ) وهي مكية . وآيها خمس وخمسون .  
قال ابن كثير : ورد في حديث أبي واقد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ به ( قاف )  
و ( وَأُقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ) في الأضحى والفطر . وكان يقرأ بهما في المحافل الكبار ، لاشتمالها على  
ذكر الوعد والوعيد ، وبدء الخلق وإعادته ، والتوحيد ، وإثبات النبوات ، وغير ذلك من  
المقاصد العظيمة .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] ( أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ )

« أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ » أى دنت الساعة التى تقوم فيها القيامة . كما قال (١) ( أَتَى آَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَمِعِ لَهُمْ ) وقال (٢) ( أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ) . قال ابن جرير (٣) : وهذا من الله تعالى إنذار لعباده بدنو القيامة ، وقرب فناء الدنيا ، وأمرهم لهم بالاستعداد لأحوال القيامة ، قبل هجومها عليهم ، وهم عنها فى غفلة ساهون . « وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] ( وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ )

« وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ » قال ابن جرير (٣) : كان ذلك ، فيما ذكر ، على عهد رسول الله ﷺ وهو بمكة ، قبل هجرته إلى المدينة . وذلك أن كفار أهل مكة سألوه آية ، فأراههم ﷺ انشقاق القمر حجة على صدق قوله ، وحقية نبوته . فلما أراههم أعرضوا وكذبوا ، وقالوا هذا سحر مستمر ، سحرنا محمد . ثم روى ذلك عن أنس وابن مسعود وابن عباس ، وغير واحد من التابعين .

وقال القاضي عياض فى ( الشفا ) أخبر تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضى ، وإعراض الكفرة عن آياته . وأجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه ، ثم سرد الآثار فى ذلك .

(١) [ ١٦ / النحل / ١ ] . (٢) [ ٢١ / الأنبياء / ١ ] .

(٣) انظر الصفحة رقم ٨٤ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبي الثانية ) .

وزعم ابن كثير أن أحاديثه متواترة ، إلا أن الشهاب نقل عن الإمام الخطابي أن معجزاته ﷺ ، غير القرآن ، لم تتواتر . والحكمة فيه أنها لو تواترت كانت عامة ، والمعجزة إذا عمت أهلك الله من كذبها ، كما جرت به العادة الإلهية ، والنبي ﷺ بعث رحمة ، وأمن الله أمته من عذاب الاستئصال .

ثم قال : وسبب تعرضهم للتواتر طعن بعض الملاحدة بأن القمر يشاهده كل أحد ، فلو انقسم قطعتين تواتر وشاع في جميع الناس ، ولم يخف على أحد . والطباع حريصة على إشاعة ما لم يعد مثله ، ولا أغرب من هذا . مع أن الملازمة غير لازمة ، لأنه في الليل ، وزمان الغفلة ، ولا يلزم امتداده ، ولا أن يرى إذ ذاك في جميع الآفاق ، لاختلاف المطالع . انتهى . وقد ذكر ابن قتيبة في ( تأويل مختلف الحديث ) أن الذي طعن في تلك الآثار المروية عن ابن مسعود هو النظام ، إلا أنه لم ينقل تأويله للآية على رأيه ، ولعله هو القول الثاني الذي حكاه الزخمرى والبيضاوى ، ورواه أبو السعود عن عثمان بن عطاء عن أبيه أن المعنى : وسينشق القمر ، يعنى يوم القيامة إذا انكدرت النجوم وانتثرت . والمراد بالآية إما القرآن أو ما يقترحونه لو أجبوا إلى طلبه .

ومعنى ( مُسْتَمِرٌّ ) دائم مطرد ، أو محكم قوى ، من ( مررت الجبل ) إذا أحكمت فتله . أو ما زاهب لا يبقى ، تعليلاً لأنفسهم بالأمانى الفارغة . أو منفور عنه لشدة حرارته مجازاً . وجملة ( وإن يروا ) مستأنفة أو حالية .

قال الشهاب : ولو كانت هذه الجملة حالية ، والمعنى . أن الساعة اقتربت ، وانشقاق القمر فيها دنا زمانه ، وظهرت آثاره ، والحال أنهم مصررون على العناد - كان منتظماً أتم انتظام ، ولا ضير فيه سوى مخالفته للمنقول عن السلف في تفسيرها ، فتأمل . انتهى .

أقول : ولى ههنا كلمة لا بد من التنبيه عليها ، وهى أن الرمي بالإلحاد لمفسكر حديث غير مجمع على تواتره ، جنسية كبرى ، وزلة عظمى . فإن باب التفكير والتضليل ، ليس بالأمر

القليل . ولأجله صنف حجة الإسلام الغزالي كتابه ( فيصل التفرقة ) ودمغ بحججه أولئك المتعصبين الذين سهل عليهم الرى لمن خالفهم بالزندقة . ولعمر الحق إن هذا مما فرق الكلمة ، ونقر حملة العلم عن تعرف المشارب والآراء ، حتى أصبح باب التوسع فى العلم مرتجاً ، ومحيطه بعد مده منحسراً ، إذ هجرت كتب الفرق الأخرى بل أحرقت ، وأهين من يتأثلها ، ورمى بالابتداع أو التزندق ، كما يمر كثير من مثل هذا بمطالع كتب التاريخ وطبقات الرجال ، فلا جرم نسيت الأقوال الباقية ، وعدت من الشاذ غير المقبول . وإذا ألصق اسم الإلحاد بقائلها ، فاذا يكون حالها ؟ وهذا ، كما لا يخفاك ، حيف على قواعد العلم ، وغل للأفكار . نعم ! تفلت منهم علم الأصول ، فلم تزل الأقوال الغربية تراءى على صفحاته ، وإن كان مما يغمز كثير منها ، إلا أنها سارت تلج آذانهم ، ويحتج بها عليهم . وقد تنبه كثير من المحققين لما ذكرناه ، وأشاروا له فى مواضع ، فقررروا فى كتب العقائد أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة .

وقال العلامة الفناى فى ( فصول البدائع ) : ولا يضلل جاحد الآحاد .

وقال الإمام ابن تيمية : الصواب أن من رد الخبر الصحيح ، كما كانت الصحابة ترده ، لاعتقاد غلط الناقل أو كذبه ، لاعتقاد الراد أن الدليل قد دل على أن الرسول لا يقول هذا ، فإن هذا لا يكفر ولا يفسق ، وإن لم يكن اعتقاده مطابقاً . فقد رد غير واحد من الصحابة غير واحد من الأخبار التى هى صحيحة عند أهل الحديث . انتهى .

وذكر الغزالي فى ( الإحياء ) فى كتاب آداب تلاوة القرآن فى الباب الثالث فى أعمال الباطن فى التلاوة ؛ أن من أركانها التخلي عن موانع الفهم . قال : فإن أكثر الناس منعوا عن فهم معانى القرآن لأسباب وحجب أسدلها الشيطان على قلوبهم ، فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن . وحجب الفهم أربعة . إلى أن قال :

وثانيها - أن يكون مقلداً للمذهب سماعه بالتقليد ، وجمد عليه ، وثبت فى نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة . فهذا شخص قيده معتقده

عن أن يجاوزه ، فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده ، فصار نظره موقوفاً على مسموعه ، فإن لمع برق على بمد وبداله معنى من المعاني التي تبين مسموعه ، حمل عليه شيطان التقليد حملة ، وقال : كيف يخطر بهذا ببالك ، وهو خلاف معتقد آبائك ؟ فيرى أن ذلك غرور الشيطان فيتباعد منه ، ويحترز عن مثله . ثم قال :

رابعها - أن يكون قرأ تفسيراً ظاهراً ، واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ماتناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرها ، وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأى ، وأن من فسر القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار ، فهذا أيضاً من الحجب العظيمة . ثم قال :

وسنبين معنى التفسير بالرأى ، وأن ذلك لا يناقض قول علي رضي الله عنه : إلا أن يؤتى الله عبداً فهماً في القرآن . وأنه لو كان المعنى هو الظاهر المنقول ، لما اختلف الناس فيه .

ثم ذكر بعد ، عليه الرحمة ، أن النهي عن التفسير بالرأى ينزل على أحد وجهين : أحدهما - أن يكون له في الشيء رأى ، وإليه ميل من طبعه وهواه ، فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ، ليحتج على تصحيح غرضه ، كالمحتج على تصحيح بدعة بتأويل يخترعه تلميساً على خصمه ، وكالجاهل المتحتم يتأول ما شاء هواه .

وثانيهما - أن يتسارع إلى التأويل بظاهر العربية من غير استظهار بالسمع والنقل فيما يتعلق بغرائب التنزيل . انتهى .

ويأتى مثل البحث في كثير من المواضع التي فسرنا بعض السلف بشيء ، أو روى فيها ما أنكره غيره لما قام لديه . ولا ملام في معترك الأفهام - وبالله التوفيق - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] ( وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ، وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ )

« وَكَذَّبُوا » أي بايات الله بعد ما أتتهم حقيقةتها « وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ » أي ما زين لهم من دفع الحق مما وجدوا عليه آباءهم « وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ » أي كل أمر لا بد أن يصير

إلى غاية يستقر عليها . تعريض بأن أمر الرسول لا بد أن يستقر إلى غاية، هي الظهور والنصرة؛ وأمر مكذبيه إلى الخذلان والشقاوة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] ( وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ )

[٥] ( حِكْمَةٌ بَلِيغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْنُذُرُ )

« وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ » أى عن القرون الخالية ، والحقائق الكونية ، مما يستحيل أن يأتي به أى غيره صلوات الله عاياه « مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ » أى مرتدع عما هم مقيمون عليه من التكذيب والغفلة واللهو « حِكْمَةٌ بَلِيغَةٌ » أى بلغت غايتها من الأحكام والتغزى عن الخلل ، ومن الاشتغال على البراهين القاطعة والحجج الساطعة . وهو بدل من (ما) أو خبر محذوف ، أى هو حكمة بالغة « فَمَا تُغْنِ الْنُذُرُ » جمع نذير . و (ما) نافية ، أو استفهامية . أى : أى غناء تغنى عن قوم آثروا الضلالة على الهدى ، فأعرضوا عنه ، وكذبوا به . وجوز أن تكون ( حِكْمَةٌ بَلِيغَةٌ ) جملة مستأنفة للتعجب من حالهم ، مع ما جاءهم مما يقود إلى الإيمان بآدى بدء . وهو ما يفهم من تأويل ابن كثير . وعبارته : ( حِكْمَةٌ بَلِيغَةٌ ) أى فى هدايته تعالى لمن هداه، وإضلاله لمن أضله (فَمَا تُغْنِ الْنُذُرُ) يعنى أى شىء تغنى النذر عن كتب الله عليه الشقاوة ، وختم على قلبه . فمن ذا الذى يهديه من بعد الله ؟ وهذه الآية كقوله تعالى (١) ( وَلَوْ شَاءَ لَهَدَّيْكُمْ أَجْمَعِينَ ) وكذا قوله تعالى (٢) ( وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ) .

(٢) [ ١٠ / يونس / ١٠١ ] .

(١) [ ١٦ / النحل / ٩ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [٦] ( فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نَّكُرٍ )  
 [٧] ( خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ )  
 [٨] ( مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ، يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسِرَ )

« فَتَوَلَّ عَنْهُمْ » أى اصفح عن أذاهم ، وانتظر ما يأتيهم من الوعيد الشديد ، كما قال :  
 « يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ » أى داعى الله إلى موقف القيامة ، وهو ملك . أو الدعاء تمثيل للإعادة  
 كالأمر في قوله ( كُنْ فَيَكُونُ ) تمثيل للإبداء ، والداعى هو الله تعالى « إِلَىٰ شَيْءٍ نَّكُرٍ » أى  
 فظيع تنكره النفوس ، وهو موقف الحساب والجزاء والبلاء « خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ » أى من  
 الذل والصغار « يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ » أى قبورهم « كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ » أى فى  
 السكثرة والتموج والانتشار . والجراد مثل فى السكثرة « مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ » أى مسرعين .  
 مادى أعناقهم إليه . « يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسِرَ » أى لشدة أهواله و ( يَوْمَ يَدْعُ )  
 ظرف ل ( يَقُولُ ) وقيل : بمضمر ، وقيل : ب ( يَخْرُجُونَ ) والأول أظهر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

- [٩] ( كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ )  
 « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ » أى زجر  
 عن الإنذار والتبليغ بشدة وقساوة ، كما يدل عليه صيغة ( افعل ) .

قال الناصر : وليس قوله ( فَكَذَّبُوا ) الثانى تكراراً ، لأن الأول مطلق ، والثانى مقيد .  
 وهو كقوله فى السورة<sup>(١)</sup> ( فَمَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ) فإن معاطيه هو نفس عقره ، ولكن ذكره من  
 جهة عمومه ، ثم من ناحية خصوصه إسهاباً ، وهو بمثابة ذكره مرتين . وجواب آخر هنا ،

(١) [ ٥٤ / القمر / ٢٩ ] .

وهو أن المكذب أولاً محذوف ، دل عليه ذكر نوح ، فكأنه قال : كذبت قوم نوح نوحاً ، ثم جاء بتسكديبهم ثانياً مضافاً إلى قوله (عَبْدَنَا) فوصف نوحاً بخصوص العبودية . وأضافه إليه إضافة تشرية . قالتسكديب الخبر عنه ثانياً ، أبشع عليهم من المذكور أولاً ، لتلك اللوحة . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (فَدَعَا رَبَّهُ وَ- أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرُ)

« فَدَعَا رَبَّهُ وَ- أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرُ » أى غلبنى قومى تمرداً وعتوًّا ، فلم يسمعوا منى . واستحكم اليأس منهم ، فانقم منهم بعذاب ترسله عليهم . ثم أشار إلى استجابته تعالى دعاءه : بالطوفان الذى هلكوا فيه ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ)

[١٢] (وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ)

[١٣] (وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوَّاحِ وَدُسِّرِ)

[١٤] (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ)

[١٥] (وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

[١٦] (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذِرِ)

« فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ » أى مندفق . وفيه استعارة تمثيلية ، بتشبيهه تدفق المطر من السحاب بانصباب أنهار انفتحت لها أبواب السماء ، وشق لها أديم الخضراء . « وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا » أى وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون تمفجر . « فَالْتَقَى الْمَاءُ »

أى ماء السماء وماء الأرض « عَلَىٰ أَمْرٍ قَدَرٍ » أى على حال قدره الله وقضاه، وهو هلاك قوم نوح . « وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوْحِ وَدُسْرٍ » يعنى السفينة . أقيمت صفاتها مقامها ، لتأديتها مؤداها . وهو من بديع الكلام - كما بسطه في (الكشاف) - .  
 (ودُسْرٍ) جمع دَسار بكسر الدال ، أو دَسْر كسقف وسقف ، وهى أضلاعها ، أو حبالها التى تشد فيها ، أو مساميرها .

« تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا » أى بمرأى منا . كناية عن حفظها بحفظه تعالى وعنايته . « جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرًا » أى كفر به ، وهو الله تعالى ، أو نوح وما جاء به ، فهو من (الكفر) ضد الإيمان . أو هو نوح عليه السلام لأنه نعمة كفرها ، فهو متعد بنفسه ، استعير لنوح النعمة بطريق الكناية ، ونسب الكفران تحييلًا أو حقيقة . « وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا » أى قصة نوح « آيَةً » أى جعلناها عبرة يُعتبر بها . « فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ » ؟ أى معتبر ومتعظ . وأصله (مذنكر) . « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي » أى عذابي لهؤلاء الكفرة، قوم نوح، وإنذاراتي بما أحللت بهم ، ليحذر أمثالهم وينتهوا عما يقترفونه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ )

« وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ » أى سهلناه للادِّكار والانتعاظ ، لكثرة ما ضرب فيه من الأمثال الكافية الشافية « فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟ » أى فيعتبر بما فيه ، ويشوب إلى رشده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] ( كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي )

[١٩] ( إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ )

[٢٠] ( تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ )

[٢١] ( فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ )

[٢٢] ( وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ )

« كَذَّبَتْ عَادٌ » أى نبيهم هوداً عليه السلام ، بمنزل ما كذبت به قوم نوح « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ \* إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا » أى شديدة الهبوب ، لها صرير ، أو باردة ، « فِي يَوْمٍ نَحْسٍ » أى شر وشؤم عليهم « مُسْتَمِرٍّ » أى استمر عليهم ودام حتى أهلكهم ، أو شديد المرارة لعظم بلائه . « تَنْزِعُ النَّاسَ » أى تقلعهم عن أماكنهم . « كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ » أى أصول نخل منقلع عن مغارسه . وأصل ( مُنْقَعِرٍ ) ما أخرج من القمر . « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ » كرّره للتحويل وللتنبيه على فرط عتوهم . أى فكيف كان عذابى لقومه ، وإنذارى لهم على لسانه ؟ « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ » ؟ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] ( كَذَّبَتْ هَمُودٌ بِالنُّذْرِ )

[٢٤] ( فَقَالُوا أَبَشَرًا مِمَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُوَ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ )

[٢٥] ( أَأَلْتِنَا الَّذِي كَرَّمْنَا عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ )

[٢٦] ( سَيَعْمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ )

[٢٧] ( إِنَّا مُرْسَلُونَ النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَأَرْتَقِبْهُمْ وَأَصْطَبِرْ )

[٢٨] ( وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ، كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ )

[٢٩] ( فَنادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ )

[٣٠] ( فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي )

[٣١] ( إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ )

[٣٢] ( وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ أَنْ لَوْلَا أَنَّهُ لَكُنَّ أَعْيُنٌ عَلَىٰ الرَّءِيسِ لَعَبَّرْنَا بِهِ هَدْمَ الْمُجْرِمِ )

« كَذَبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ » أى بما أنذرهم به نبيهم صالح عليه السلام . « فَقَالُوا أَبَشْرًا مِمَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ وَإِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَلٍ وَسُعُرٍ » أى جنون ، أو عناء . فهو اسم مفرد . وقيل : جمع سعيير ، كأنهم عكسوا عليه ، فرتبوا على اتباعهم إياه مراتبه على اتباعهم له .

قال الزمخشري قالوا : (أبشراً) إنكاراً لأن يتبعوا مثلهم فى الجنسية، وطلبوا أن يكون من جنس أعلى من جنس البشر ، وهم الملائكة . وقالوا (مئناً) لأنه إذا كان منهم كانت المائلة أقوى . وقالوا (واحداً) إنكاراً لأن تتبع الأمة رجلاً واحداً ، أو أرادوا واحداً من أفئدتهم ليس بأشرفهم وأفضلهم . ويدل عليه قولهم « أَلْقَى الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا » يعنون : الوحي والنبوة . أى وفينا من هو أحق بها على زعمهم ، لكونه أعز مائلاً ونقراً « بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشِرٌ » أى متكبر ، حمله كبره على استبعادنا له . « سَيَعْلَمُونَ غَدًا » أى عند نزول العذاب بهم ، أو يوم القيامة « مَنْ الكَذَابُ الْأَشِرُّ » أى المتكبر عن الحق ، البطر له « إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ » أى آية وحجة لصالح على قومه امتحاناً لهم وابتلاء « فَأَرْتَقِبْهُمْ » أى انتظرهم وتبصر ما هم صانعون بها « وَأَصْطَبِرْ » أى على دعوتهم « وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ » أى الذى يردونه لشرب مواشيهم « قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ » أى مقسوم بينهم ، لها شرب يوم ، ولهم شرب يوم « كُلُّ شَرِبٍ مُحْتَضَرٌ » أى يحضره صاحبه فى نوبته و (الشرب) النصيب من الماء .

ثم أشار تعالى إلى عتوهم عن أمر ربهم بقوله « فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى » فنناول الناقة بيده « فَمَعَرَ » أى فمقرها وقتلها « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي \* إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ » أى كالشجر اليابس المتكسر ، الذى يتخذ

من يعمل الحظيرة للغنم ونحوها . أو كالحشيش اليابس الذى يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته في الشتاء . وقرئ بفتح الظاء ، اسم مكان . أى كهشيم الحظيرة ، أو الشجر المتخذ لها . وهو تشبيه لإهلاكمهم وإفنائهم ، وأنهم بادوا عن آخرهم ، لم تبق منهم باقية ، وخذوا وهمدوا ، كما يهدم ويبس الزرع والنبات بعد خضرة ورقه ، وحسن نباته .

قال ابن زيد : كانت العرب يعملون حظاراً على الإبل والمواشى من يبس الشوك .

وعن سفیان: المهشم ، إذا ضربت الحظيرة بالعصا، تهشم ذلك الورق فيسقط ، والعرب تسمى كل شيء كان رطباً فيبس ، هشيماً « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] ( كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذُرِّ )

[٣٤] ( إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ ، نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ )

[٣٥] ( نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ، كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ )

[٣٦] ( وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالَّذُرِّ )

[٣٧] ( وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَذُرِّ )

[٣٨] ( وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ )

[٣٩] ( فَذُوقُوا عَذَابِي وَذُرِّ )

[٤٠] ( وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ )

« كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذُرِّ \* إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا » أى ملكاً يرميهم بالحصباء والحجارة . أورياً تحصبهم بالحجارة ، أى ترميهم « إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ » أى

في سحر . أو ( الباء ) للملابسة ، أو المصاحبة . وذلك أنه تعالى أوحى إليهم أن يخرجوا من آخر الليل ، فنجوا مما أصاب قومهم . ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ، ولا رجل واحد ، حتى ولا امرأته ، وقد أصابها ما أصابهم . وخرج نبي الله لوط عليه السلام وبنات له ، من بين أظهرهم سالمين لم يحسبهم سوء « نِعْمَةٌ مِّنْ عِنْدِنَا » أى إنعاماً منا ، وهو علة لـ (نجينا) « كَذَلِكَ نَجِزِي مَنْ شَكَرَ » أى فأطاع ربه ، وانتهى إلى أمره ونهيهِ . و (الشكر) صرف العبد جميع ما أنعم عليه ، إلى ما خلق لأجله « وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ » أى لوط « بَطْشَتْنَا » أى أخذتنا بالمذاب « فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ » أى بإنذاراته ، تكديباً له « وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِيهِ » أى طابوه بإتيان الفاحشة معهم ، وهم الملائكة الذين وردوا عليه في صورة شباب مُرْدٍ حسان ، محنة من الله بهم ، فأضافهم لوط عليه السلام ، وبعثت امرأته العجوز السوء إلى قومها تعلمهم بأضيافه عليه السلام ، فأقبلوا يهرعون إليه من كل مكان ، فتلقاهم يناشدهم الله أن لا ينجزوه في ضيفه ، فأبوا عليه ، وجاءوا ليدخلوا عليه ، فأعمى الله أبصارهم ، فلم يروهم ، كما قال « فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِي \* وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ » أى يدوم بهم إلى النار . « فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِي \* وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ » قال الزمخشري : فإن قلت : ما فائدة تكرير قوله ( فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِي ) ( وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ... ) الخ ؟ قلت : فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين إذ كلاً واتعاضاً ، وأن يستأنفوا تنبهاً واستيقاظاً ، إذا سمعوا الحث على ذلك ، والبعث عليه ، وأن يقرع لهم العصا مرات ، ويقعق لهم الشن تارات ، لثلا يغلبهم السهو ، ولا تستولى عليهم الغفلة . وهكذا حكم التكرير كقوله<sup>(١)</sup> ( فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) عند كل نعمة عدها في سورة (الرحمن) . وقوله<sup>(٢)</sup> ( وَيَلُوكُ يَوْمَئِذٍ اللَّامُكَذِّبِينَ ) عند كل آية أوردتها في

(١) [ ٥٥ / الرحمن / ١٣ ] . (٢) [ ٧٧ / المرسلات / ١٥ ] .

سورة ( والمرسلات ) . وكذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها ، لتكون العبر حاضرة للقلوب ، مصورة للأذهان ، مذكورة غير منسية في كل أوان . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] ( وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ )

[٤٢] ( كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ )

« وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ » بمعنى موسى وهرون ، وجمعهما للتعظيم ، أو هو جمع نذير بمعنى الإنذار « كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا » بمعنى الآيات التسع ، أو الأدلة والحجج التي أتتهم ناطقة بوحدانيته تعالى . « فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ » أى عاقبناهم عقوبة شديدة لا يغالب « مُّقْتَدِرٍ » أى عظيم القدرة لا يعجزه شئ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] ( أَلْكَفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلَائِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ )

[٤٤] ( أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرُونَ )

« أَلْكَفَّارُكُمْ » يا معشر قريش « خَيْرٌ مِّنْ أَوْلَائِكُمْ » أى الكفار المدودين الذين حلت النعمة حتى يأمنوا جانبها « أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ » أى براءة من عقابه تعالى ، وأمان منه ، مع أنكم على شاكلة من مضي نبؤهم « أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرُونَ » أى ممتنع لا يرام . أو منتصر ممن أراد حربنا ، وتفريق كلمتنا . أو متناصر ، ينصر بعضهم بعضاً ، فالافتعال بمعنى التفاعل ، كالاختصاص بمعنى التخاصم . وإفراد ( مُّنتَصِرُونَ ) مراعاة للفظ ( جَمِيعٌ ) لخفة الإفراد ، ولرعاية الفاصلة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] ( سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ )

[٤٦] ( بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرٌ )

« سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ » بمعنى جمع كفار قريش « وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ » أى يولون أذبارهم المؤمنين بالله ، عند انهزامهم . وإفراد ( الدُّبُرِ ) لإرادة الجنس ، أو رعاية الفواصل ، ومشكلة قرائنه . وقد وقع ذلك يوم بدر . وهو من دلائل النبوة ، لأن الآية مكية ، ففيها إخبار عن الغيب ، وهو من معجزات القرآن . « بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ » قال ابن جرير<sup>(١)</sup> : ما الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون من أنهم لا يبعثون بعد مماتهم ، بل الساعة موعدهم للبعث والعقاب . « وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرٌ » أى أعظم داهية ، وهى الأمر المنكر الذى لا يهتدى لدوائه . وأمرٌ مذاقاً ، أو أشد عليهم من الهزيمة التى سيهزمونها ، إذا التقوا مع المؤمنين للقتال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] ( إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ )

[٤٨] ( يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ )

« إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ » أى عن الحق فى الدنيا « وَسُعُرٍ » أى نيران فى الآخرة . وقال القاشانى : أى فى ضلال عن طريق الحق ، لعمى قلوبهم بظلمة صفات نفوسهم . و ( سُعُرٍ ) أى جنون ووله ، لاحتجاب عقولهم عن نور الحق بشوائب الوهم ، وحيرتها فى الباطل .

« يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ » أى يجرون عليها . « ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ » أى حرها وألمها . والاستعارة فى المس تحقيقية . أوفى ( سَقَرَ ) مكنية ، وفى ( المس ) تخيلية .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٩ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبي الثانية ) .

أو المس مجاز مرسل بملاقة السبيبة للألم . واستعارة الذوق مشهورة ، واستعمال الذوق في المصائب بمنزلة الحقيقة . و (سَقَرَ) من أسماء جهنم - أعادنا الله منها - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

« إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » أى بمقدار استوفى فيه مقتضى الحكمة ، وترتب الأسباب على مسبباتها . ومنه خلق دار العذاب ، لما كسبت الأيدي ، وإذاقة ألمها جزاء الزيف عن الهدى . وهذه الآية كآية<sup>(١)</sup> ( وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ وَتَقْدِيرًا ) ، وآية<sup>(٢)</sup> ( سَمِيعِ أَسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى \* الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى \* وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ) أى قَدَّرَ قَدْرًا ، وهدى الخلائق إليه . ولا مانع أن تكون هذه الآية وما بعدها إلفاتاً لمظمتة تعالى ، وكبير قدرته ، وأن من كانت له تلك النعوت المثل لجدير أن يُعبد وحده ، ويُرهب بأسه ، ويتقى بطشه ، لاسيما وقد صدع الداعي بإنذاره ، ومن أنذر فقد أعذر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] ( وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ )

« وَمَا أَمْرُنَا » أى الذى به الإيجاد « إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ » أى كلمة واحدة يكون بها كل شيء ، بمقتضى استعداده ، كلمح بالبصر في السرعة . قال القاشانى : ( إِلَّا وَاحِدَةٌ ) أى تعلق المشيئة الأزلية الموجبة لوجود كل شيء في زمان معين ، على وجه معلوم ، ثابت في لوح القدرة ، المسمى في الشرع بـ ( كُن ) ، فيجب وجوده في ذلك الزمان ، على ذلك الوجه دفعة . انتهى .

وقيل : معنى الآية ، معنى قوله تعالى<sup>(٣)</sup> ( وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحٍ الْبَصَرِ ) .

(١) [ ٢٥ / الفرقان / ٢ ] . (٢) [ ٨٧ / الأعلى / ١-٣ ] . (٣) [ ١٦ / النحل / ٧٧ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] ( وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَدَّ كَرٍ )

« وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ » أى أشباهكم فى الكفر من الأمم السالفة .  
قال الشهاب : أصل معنى (الأشياء) جمع شيعة ، وهم من يتقوى بهم المرء من الأتباع .  
ولما كانوا فى الغالب من جنس واحد ، أريد به ما ذكر ، إما باستعماله فى لازمه ، أو بطريق الاستعارة .

« فَهَلْ مِنْ مَدَّ كَرٍ » أى متمعن بذلك ينزجر به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] ( وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ )

« وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ » أى الكتب التى أحصتها الحفظة عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] ( وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ )

« وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ » أى من الأعمال « مُسْتَطَرٌّ » أى مسطور لا يعجى ولا ينسى ،  
كما قال تعالى <sup>(١)</sup> ( وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً  
إِلَّا أَحْصَاهَا ، وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ) وقوله سبحانه <sup>(٢)</sup>  
( وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ  
مَنْشُورًا \* أَقْرَأْ كِتَابِكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ) .

وروى الإمام أحمد <sup>(٣)</sup> عن عائشة رضى الله عنها ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول :

(١) [ ١٨ / الكهف / ٤٩ ] . (٢) [ ١٧ / الإسراء / ١٣ و ١٤ ] .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٧٠ من الجزء السادس ( طبعة الحلبي ) .

يا عائشة ! إِيَّاكَ وَمَحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ ، فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللَّهِ طَالِبًا .

قال ابن كثير : ورواه النسائي وابن ماجة من طريق سميد بن مسلم بن ماهك المدني ، وثقه أحمد وابن معين وأبو حاتم وغيرهم . وقد رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة سميد بن مسلم هذا ، من وجه آخر . ثم قال سميد : فحدثت بهذا الحديث عامر بن هشام فقال لي : ويحك يا سميد ! لقد حدثني سليمان بن المغيرة أنه عمل ذنباً فاستصغره ، فأناه آت في منامه ، فقال له : يا سليمان !

لَا تَحِقِّرَنَّ مِنَ الذُّنُوبِ صَغِيرًا	إِنَّ الصَّغِيرَ غَدًا يَعُودُ كَبِيرًا
إِنَّ الصَّغِيرَ ، وَلَوْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ ،	عِنْدَ الْإِلَهِ مُسَطَّرٌ تَسْطِيرًا
فَازْجُرْ هَوَاكَ عَنِ الْبِطَالَةِ ، لَا تَكُنْ	صَعْبَ الْقِيَادِ وَشَمْرَنَ تَشْمِيرًا
إِنَّ الْمُحِبَّ إِذَا أَحَبَّ إِلَهُهُ	طَارَ الْفَوَازُ وَالْهَيْمَ التَّفْكِيرًا
فَسَأَلْ هِدَايَتِكَ الْإِلَهِ ، فَتَتَّبِعْهُ	فَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ)

[٥٥] (فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ » أى الذين اتقوا عقاب الله بطاعته، وأداء فرائضه، واجتناب نواهيه، « فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ » أى أنهار . واكتفى باسم الجنس المفرد لرعاية الفواصل . وقرئ بسكون الهاء ، وضم النون ، وقرئ بضمهما . « فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ » قال ابن جرير<sup>(١)</sup> : أى فى مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم .

وقال الزمخشري : فى مكان مرضى . قال شراحه : فالصدق مجاز مرسل فى لازمه ،

(١) انظر الصفحة رقم ١١٣ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبي الثانية ) .

أو استعارة . وقيل : المراد صدق المبشّر به ، وهو الله ورسوله . أو المراد أنه ناله من ناله بصدقه وتصديقه للرسول ، فالإضافة لأدنى ملابسته .

« عِنْدَ مَلِيكٍ » بمعنى ملك . قال الشهاب : وليس إشباعاً ، بل هي صيغة مبالغة كالمقتدر « مُقْتَدِرٍ » قال القاشاني : أي يقدر على تصريف جميع ما في ملكه على حكم مشيئته ، وتسخيره على مقتضى إرادته لا يمتنع عليه شيء .

وقال الشهاب : في تنكير الاسمين الكريمين إشارة إلى أن ملكه وقدرته لا تدرى الأنفهام كنههما ، وأن قربهم منه بمنزلة من السعادة والكرامة ، بحيث لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، مما يجلب عن البيان ، وتكمل دونه الأذهان .